بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى علم العربية لون من التأليف يمثل اتجاهاً قوياً للمحافظة على سلامة اللغة، وتنقيتها مما شاع على ألسنة الناطقين بها من كلام دخيل أو مختلف عن سنن الكلام العربى ، فى الأصوات أو الصيغ أو نظام الجمل أو حركة الإعراب أو دلالة الألفاظ ، فتذكر هذه المؤلفات الخطأ المستعمل ، والصواب الذى يجب أن يجرى به الاستعمال .

وقد شاعت تسمية هذا اللون باسم « لحن العامة » (١) وعنون كثير من كتبه بهذا العنوان ، وإن اتجهت كتب أخرى إلى تسمية تلائم الغرض منها، فهى « إصلاح المنطق » و « تقويم اللسان » و « تثقيف اللسان » وتلقيح الجنان » و « والمدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » و « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » و « الجمانة فى إزالة الرطانة » ، وما إلى ذلك . . .

أما الاتجاه الذى تعد هذه الكتب لسان حاله ، فقد سبق ظهورها بعشرات السنين مع بداية الالتفات إلى اللحن الذى بدأ يظهر فى كلام الموالى والمتعربين ، منذ عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — الذى قال عندما لحن رجل فى حضرته : « أرشدوا أخاكم » (٢) ، واتضحت معالمه فى عهد على — رضى الله عنه — بالملاحظات التى أدت إلى الالتجاء لنحو نقط المصحف بنقط تميز حركة الإعراب ، وقيام أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) بوضع أبواب من النحو ، ثم اختلاف

---

(١) راجع معنى « اللحن » ، ومعنى « العامة والخاصة » فى « الباب الأول » من هذا الكتاب .

(٢) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين : ٥

الناس إليه ، يتعلمون منه العربية، ويفرّع لهم ما كان أصّله (٣) .

وقوى هذا الاتجاه فى عهد الأمويين ، بالحركة الدائبة لجمع اللغة من أفواه الأعراب الموثوق بهم ،واستقراء شواهدها ، ووضع قواعدها ، ثم استنكار اللحن. وأصدق ما يمثل هذا الاستنكار قول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز : « إن الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها ،وكأنى أقضم حب الرمان الحامض ، لبغضى استماع اللحن ، ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه » (٤)، وقوله أيضاً : « أكاد أضرس إذا سمعت اللحن » (٥) ، وكلمات كثيرة رويت عن عبد الملك بن مروان وغيره ، فى استنكار اللحن والدعوة إلى تجنبه .

ثم شهد العصر العباسى حركة لغوية دائبة ،اهتمت — بعد مرحلة الانطلاق فى جمع اللغة ،ووضع القواعد والتأليف فيها ، ووضع بعض المعجمات — فبجمع ما شاع على ألسنة الناس من كلام مختلف عن سنن الكلام العربى الفصيح ، ويخشى أن يمتد خطره إلى اللغة الأدبية المشتركة . وكان أول كتب هذا اللون فى ذلك العصر الكتاب الذى ينسب إلى على بن حمزة الكسائى (ت ١٨٩ هـ)، ويقال إنه ألفه لتلميذه هارون الرشيد . ولكن المؤكد أن القرن الثالث شهد — مع بدايته — طائفة من كتب اللحن ،للفرّاء (ت ٢٠٧هـ) وأبى عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى (ت ٢١٠) والأصمعى (ت ٢١٦) وأبى عبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤) وابن السكّيت (ت٢٤٤) وأبى عثمان المازنى (ت٢٤٨) وأبى حاتم السجستانى (ت ٢٥٥) وابن قتيبة

---

(٣) المصدر نفسه : ١١

(٤) ابن الأنبارى : الأضداد : ٢٤٥

(٥) المصدر نفسه .

(ت٢٧٦) وثعلب (ت ٢٩١) وغيرهم فى القرون التالية، ممن أوردنا أسماء كتبهم ، وتحدثنا عنها فى فصل خاص، فى هذا الكتاب.

ولهذه الكتب من الأهمية — فوق غايتها الأولى ، وهى تنقية اللغة ، والتوجيه إلى فصيح الكلام ، ومقاومة اللهجات العامية — أنها سجل للألفاظ والمعانى المستعملة فى لهجات الخطاب فى البيئات العربية المختلفة. فعندما يتجه البحث العلمى الحديث إلى دراسة التطور التاريخى للعربية ولهجاتها ، فسيجد فى هذه الكتب المادة الأصيلة لهذه الدراسة ، ثم هى بعدُ تعطينا — من خلال الكلمات والأساليب — صورة للمجتمع العربى فى العصور والبيئات المختلفة ، فإن اللغة مرآة تنعكس فيها صورة الشعب ، وعاداته ، وأساليب حياته . . .

ثم إن هذه الكتب — أو أكثرها — لا تقف عند ذكر الخطأ وصوابه ، بل تورد شواهد من الشعر ، والنثر ، والأمثال ، والأخبار ، مما جعل لها وجهاً يقربها من كتب الأدب العام التى تعالج قضايا اللغة وسط هالة من الأدب . . .

وعلى أهمية هذا النوع من تراثنا ما زال كثير منه مخطوطاً لم تتجه أنظار الناشرين إليه . . . ولهذا وليت وجهى شطر هذه الكتب لأقف جهدى على تحقيق مخطوطاتها التى لم تنشر ، وتقديم دراسة لها ، تؤسس على ما تتضمنه من مادة ، وتستهدى ما انتهى إليه علم اللغة الحديث من مبادئ . . .

واخترت ثلاثة كتب مخطوطة لم تنشر من قبل ، لكى أحققها وأقيم عليها درساً لغوياً جامعياً ، وهى :

١ — « لحن العامة » للإمام اللغوى أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى (ت ٣٧٩ هـ) ، وهو فى لحن عامة الأندلس ، فى القرن الرابع الهجرى .

٢ ــ « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » للإمام اللغوى أبى حفص عمر بن خلف بن مكى الصقلى (ت ٥٠١ هـ) . وهو فى لحن عامة صقلية فى القرن الخامس الهجرى .

٣ ــ « تقويم اللسان » للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) . وهو فى لحن عامة بغداد فى القرن السادس الهجرى .

وكان الذى دعانى إلى الجمع بين هذه الثلاثة هو الاتجاه إلى أن تكون دراستى التى أقيمها على نصوص اللحن شاملة للبيئات العربية الثلاث التى تمثلها هذه المخطوطات الثلاثة ، أعنى بيئة « الأندلس » فى القرن الرابع ، و « صقلية » فى الخامس ؛ و « بغداد » فى السادس . ثم إن الكتب الثلاثة فى موضوع واحد ، وفى فترة محدودة من تاريخ العربية .

ولهذه الكتب الثلاثة من الأهمية الخاصة ما يلى :

١ ــ كتاب « لحن العامة » لأبى بكر الزبيدى هو أول كتاب فى لحن العامة فى الأندلس ، وقد كان مصدرًا من مصادر كتاب « تثقيف اللسان » لابن مكى ، وكتاب « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » الذى ألفه ابن هشام اللخمى فى لحن عامة الأندلس فى القرن السادس ، وكتاب « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » لصلاح الدين الصفدى ، فى القرن الثامن ، وكتاب « الجمانة فى إزالة الرطانة » لمؤلف تونسى فى القرن التاسع الهجرى ، ونقل عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب » بعض تصويبه .

٢ ــ وكتاب « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن مكى هو ــ فيما نعلم ــ الكتاب الوحيد الذى يسجل لهجات الخطاب فى صقلية العربية ، وانتهى منه وهو يوشك على الرحيل من صقلية بعد أن آذنت شمسها بمغيب ، وبدأت قلاعها تنهار ، وبلدانها تستسلم واحدة فى إثر أخرى ، حتى انتقلت من أيدى العرب قبل نهاية القرن الخامس .

ويعد هذا الكتاب مصدرًا أصيلاً للهجات الاجتماعية التى سادت فى صقلية بين طوائف المثقفين وأصحاب المهن ، كأهل الوثائق ، وأهل الطب ، والمغنّين ، وعلماء الفقه ، والحديث ، وهى ترسم صورة واضحة للمجتمع الصقلى بعامته وخاصته .

٣ — وكتاب « تقويم اللسان » لابن الجوزى يمثل أخطاء عامة المشرق التى بدأ تسجيلها مع بداية القرن الثالث ، وظلت تنتقل على الألسنة حتى انتهت إلى بغداد فى القرن السادس ، ذلك أن ابن الجوزى صرح فى مقدمته بأن كتابه هذا مجموع من كتب العلماء بالعربية مثل : الفراء ، والأصمعى ، وأبى عبيد ، وأبى حاتم ، وابن السكيت ، وابن قتيبة ، وثعلب ، وأبى هلال العسكرى وغيرهم من أئمة هذا العلم . . . وهو يعنى بغيرهم : القاسم الحريرى ، وأبا منصور الجواليقى . حيث رجعتُ إلى ما بين أيدينا من كتبهم ، وأثبتُ ما نقله عنهم . . .

فهو بهذا الوصف يمثل لحن العامة فى المشرق ، كما أن الكتابين الآخرين يمثلان لحن العامة فى المغرب .

هذه هى ميزات الكتب الثلاثة التى اخترتها لأقوم بتحقيقها وإعدادها للنشر ، وأقيم دراستى على ما تضمه من مادة لغوية .

أما الدراسة فى موضوع اللحن قبل هذه الدراسة فيمكن تصنيفها فيما يلى :

أولا : بحوث تدور حول نشأة اللحن وتطوره ، وموقف اللغويين منه ، وأهمها :

١ — العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، للمستشرق الألمانى « يوهان فك » Johann Fück ، ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، ونشر بالقاهرة ١٩٥١ .

٢ — مستقبل اللغة العربية المشتركة : للأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس . (نشره معهد الدراسات العربية العالية : ١٩٦٠) .

٣ ــ اللغة والنحو : للأستاذ الدكتور حسن عون ــ ط. الإسكندرية عام ١٩٥٢ .

٤ ــ الأخطاء اللغوية الشائعة : للأستاذ محمد على النجار .

نشر القسم الأول منه (٣٩صفحة) عام ١٩٥٩والثانى (٥٠صفحة) عام ١٩٦٠ (٦) .

ثانياً ــمقالات وملحوظات تتناول كتب لحن العامة أو بعضها، إما بعرض مناهجها و بيان أهميتها، و إما ببيان أسمائها وأسماء مؤلفيها ، كما وردت فى المصادر العربية القديمة . ومن هذه المقالات والملحوظات :

١ ــ ما كتبه المستشرق الألمانى « هنريش توربيكه» فى مقدمة نشرته لكتاب « دُرَّة الغَوّاصّ فى أوهام الخواصّ» للحريرى(ط. ليبسك ١٨٧١) .

٢ ــ ملحوظات المستشرق المجرى « جولد تسيهر» على المقدمة السابقة، وقد نشرت فى العدد ٢٧ من مجلة جمعية الاستشراق الألمانية (Z. D. M. G.) عام ١٨٧٣ (ص ١٥٥ ــ ١٥٦) .

٣ ــ مقال لجولد تسيهر فى المجلة السابقة (العدد٣٥ عام ١٨٨١) (ص ١٤٧ ــ ١٥٢) .

٤ ــ مقالان كتبهما اللغوى عيسى إسكندر المعلوف فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الجزء الأول : ٣٥٠ ، الجزء الثالث : ٣٤٩) .

٥ ــ ما كتبه اللغوى التونسى المعاصر حسن حسنى عبد الوهاب فى تقديم تحقيقه لكتاب « الجُمانة فى إزالة الرطانة» لمؤلف تونسى فى القرن التاسع الهجرى (ط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة : ١٩٥٣) .

---

(٦) أما الكتاب الذى ألفه الدكتور رمضان عبد التواب بعنوان : « لحن العامة والتطور اللغوى » فقد صدر بعد صدور الطبعة الأولى من كتابنا بعام ، وبعد حصولنا على الدكتوراه فى هذا الموضوع عام ١٩٦٤ بثلاثة أعوام .

٦ — ما كتبه الدكتور حسين نصار فى كتابه «المعجم العربى : نشأته وتطوره» (ط . دار الكتاب العربى : ١٩٥٦) ، بعنوان : «لحن العامة» (الجزء الأول من صفحة ٩٦ إلى ١١٥) ، ولكنه لم يتحدث عن «لحن العامة» للزُّبيدى ولا عن «تثقيف اللسان» لابن مكى ، وكان نصيب الكتاب الثالث وهو «تقويم اللسان» لابن الجوزى تسعة أسطر (ص ١٠٩) .

٧ — البحث الذى قدم به المستشرق الإيطالى المعاصر «أومبرتو ريتستانو» لمقدمة «تثقيف اللسان» وقد نشر فى مجلة مركز الدراسات الشرقية للآباء الفرنسيسكان بالقاهرة (المجلد الخامس : ١٩٥٦) ويقع البحث والمقدمة فى ٢٧ صفحة . وقد أشرنا إلى هذا البحث فى مقدمة تحقيقنا للتثقيف ، وأثبتنا ملحوظاتنا عليه .

٨ — ما كتبه الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى مقدمة بحثه «ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة» (نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث : ١٩٥٧) حيث تحدث عن لحن العامة ، وموازن بإيجاز بين كتاب ابن هشام اللخمى وكتابى الزبيدى وابن مكى (من ص ٧ إلى ١١) .

٩ — بحث للمستشرق جورج كروتكوف ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد — الجزء الثانى .

١٠ — بحث ألقاه محمد الفاسى المغربى ، فى مؤتمر مجمع اللغة العربية (١٤ — ١ — ١٩٦٠) بعنوان : «تاريخ الدراسات اللغوية بالمغرب الأقصى» تحدث فيه عن بعض كتب اللحن ، وبخاصة ما ألفه أهل المغرب منها .

وجمهرة هذه البحوث العشرة لم تتناول قليلا أو كثيرا من المادة التى تضمها هذه الكتب ، والبحوث الثلاثة التى ذكرناها أولا — على أهميتها وتناولها بعض مواد اللحن وتتبعها نشأته وتطوره — لم تغلق الباب فى وجه بحث جامعى يضيف

جديداً إلى الموضوع ، بل فتحت باباً لمن يجيب عن هذه الأسئلة :

هل يمكن استنباط ظواهر لغوية عامة من هذه الكلمات المتناثرة فى كتب اللحن ، بحيث يمكن أن تعد هذه الكتب سجلا للهجات الخطاب ، و يمكن الإفادة منها فى دراسة التطور اللغوى ؟ .

ثم كيف يفسر حدوث اللحن فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وما النظرة العلمية الخالصة إليه ؟ ثم لا بد بعد ذلك — أو قبل ذلك — من تحديد مفهوم « اللحن » ، ومفهوم « العامة والخاصة » ، وتحديد المقياس الصوابى الذى يجرى على أساسه الحكم بأن هذا خطأ ، وذاك صواب .

وهكذا تحددت خطوط رسالتنا هذه ، بحيث تقع فى قسمين :

القسم الأول : تحقيق الكتب الثلاثة التى اخترناها .

القسم الثانى : دراسة أقيمت على هذه الكتب وما تضمنت من مادة .

وتتألف هذه الدراسة من ثلاثة أبواب (٧) :

الباب الأول : دراسة ممهدة : وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : اللحن — معناه — نشأته — مظاهره الأولى .

الفصل الثانى : العامة والخاصة .

الفصل الثالث : مقياس الصواب والخطأ فى اللغة .

---

(٧) نشرت هذه الكتب الثلاثة بتحقيقنا وهى : (تثقيف اللسان) فى سلسلة احياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية (١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م) و (تقويم اللسان) وقد ساعد على نشره المجمع العلمى العربى فى بغداد ، ونشرته دار المعرفة بالقاهرة (١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م) ، ولحن العامة للزبيدى ، ونشرته مكتبة الأمل بالكويت : ١٩٦٨

وقامت « دار المعارف » بالقاهرة بنشر الطبعة الثانية من هذه الكتب الثلاثة : ١٩٨١ .

الفصل الرابع : التأليف فى اللحن حتى نهاية القرن السادس الهجرى (٨)

الباب الثانى : دراسة فى الكتب الثلاثة ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : « لحن العامة » للزبيدى .

الفصل الثانى : « تثقيف اللسان » لابن مكى .

الفصل الثالث : « تقويم اللسان » لابن الجوزى .

وفى كل من هذه الفصول تناول البحث التعريف بالمؤلف والكتاب ، وغرضه ومنهجه ، ومادته ، وشواهده ، وتأثره وتأثيره ، ونقده . . . وتضمن كل فصل محاولة استقرائية قمت بها خلاله ، أسفرت عن استخلاص ظواهر لغوية للغة العامة ، فى الأصوات ، والصرف ، والنحو ، والدلالة ، تمهيداً للدراسة التى تجرى على هذه الظواهر فى الباب الثالث .

أما الباب الثالث فهو : دراسة من الكتب الثلاثة ، عالج البحث فيها تفسير حدوث اللحن فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : أثر تجاور الأصوات وتقاربها فى حدوث اللحن .

الفصل الثانى : أثر النَّبْر .

الفصل الثالث : أثر التخلص من التقاء الساكنين .

الفصل الرابع : أثر القياس الخاطىء .

الفصل الخامس : أثر التطور الدلالى .

وفى الخاتمة لخصت أهم النتائج التى انتهى إليها البحث .

والله الموفق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

٢٣ من يوليو ١٩٦٦ .

٢٣ من مارس ١٩٨١ عبد العزيز مطر

(٨) وقفنا عند هذا القرن ، اذ توفى فى نهايته آخر أصحاب الكتب الثلاثة التى قمنا بتحقيقها .